

نحو قراءة لسانية متعددة للنص التراثي الواحد مثل من كتاب سيبويه

أ.م.د. باسم رشيد زوبع
الجامعة العراقية / كلية الاداب - قسم اللغة العربية
basim20191976@yahoo.com

المستخلص

اهتم هذا البحث بإظهار قراءات لسانية متعددة في نص تراثي واحد . فوقع اختيارنا على قراءة نص من كتاب (سيبويه) في ضوء وجهات لسانية متعددة تتمثل بـ (القصديّة ، ولسانيات الحدث الفعلي ، ولسانيات في المنوال النحوي ، وتحليل اتساق الخطاب ، بأليه شرح المادة الموجودة في نص (سيبويه) وفهمها ، والكشف عن بعض القضايا النظرية ، والمنهجية العامة التي تثيرها قراءة ذلك النص.

الكلمات المفتاحية: قراءة لسانية، النص التراثي، سيبويه.

Towards multiple linguistic reading of a single heritage text Like from Sibawayh's book

Basim Rasheed Zobaa
AL-Iraqia University/ College of Literature/ Arabic language department

Abstract

This paper has interest in showing multiple linguistic readings in one heritage text. So we chose to read a text from the book Sibawayh in the light of multiple linguistic destinations, represented by (intent, the actual linguistics of the event, linguistics in the grammatical mode, and the analysis of the consistency of the discourse, with the mechanism of explaining and understanding the material in the text of Sibawayh, and revealing some theoretical issues, And the general methodology raised by reading that text.

Keyword: linguistic reading , heritage text, Sibawayh's

من القضايا الفكرية التي تبين هوية التراث اللغوي وعلاقته بالنظريات اللسانية.

منطلق تأسيسي

لقد أوضحت الحاجة ماسة إلى أن نستوعب التطورات اللسانية المعاصرة ، وأن نستوعب ارتباط مفاهيمها بالمعارف الإنسانية المختلفة، ويتأتى هذا بتأصيل البحث اللساني وعلاقته بالنظام اللغوي العربي، ورصد مستويات التجريب وإمكانية مقارنة الأدوات اللغوية التراثية بالوافد من المعارف اللسانية. ويصحب ذلك تنظيم أدوات الوصف والتفسير للمدونة الفصيحة بحسب مستويات اللغة الصوتية الصرفية والتركيبية والدلالية وتجريب الامكانات التي توفرها النماذج اللسانية المتتقاة في معالجة الظواهر اللغوية الثابتة في النصوص اللغوية الفصيحة.

ولقد برهن البحث اللساني على قابلية كبيرة لوصف المتن اللغوي وتحليله ، وبين قدرته على إقامة حوار تكاملي مع معطيات الفكر اللغوي القديم ؛ ولا شك أن بناء مثل هذا التقارب هو ضرب من إعادة النظر في عدد من القضايا التي تسهم في إدراك المعارف اللغوية .

ومن أجل صياغة خطاب معرفي جديد لمحاورة التراث اللغوي العربي، وتجاوز الوصف المعياري للنص الفصيح، اشتدت الحاجة في العصر الحديث إلى إجراءات لسانية نظنها ضرورية لتطوير آلية الاستقراء اللغوي بما يناسب قيمة النص الفصيح وانفتاحه على الأنظار المعاصرة.

إن صياغة تفسيرات دالة حول هذه المسائل كان يستدعي إنجاز ممارسة لسانية منظمة بآليات الوصف والتفسير ومراجعة المتون اللغوية في أعمال القدماء، وهذا المسار استهدف معالجة مجموعة من

المقدمة

يؤمن هذا المسعى بضرورة استيعاب التطورات اللسانية المعاصرة، والتبصر بارتباط مفاهيمها بالنظام اللغوي العربي، ورصد مستويات التجريب وإقامة المقاربات؛ من أجل صياغة خطاب معرفي جديد يحاور النص التراثي، ويتجاوز الوصف المعياري؛ وصولاً إلى فلسفة لغوية لا تقدر بالمنجز القديم، وإنما تخاطب الذات والوعي ضمن منظومة تعبيرية تجعل من التواصل والتخاطب فضاء لغوياً لصناعة الألفاظ وتوجيه الإدراك؛ كون اللغة محور الفكر وحاملة للخطاب.

والذي يعنينا - هنا - أن نرصد واقع المتن اللغوي التراثي الفصيح ممثلاً بكتاب سيبويه، متخذين مبدأ النأي عن التفسير الانطباعي أو المضطرب، أو المشفوع بمصطلحات تعبيرية ملبسة، وأخذين بالحسبان الافتراق الحاصل بين الجهود السابقة وهذا الجهد، فالأولى كانت تستظهر النظرية اللسانية المراد بحثها من الكتاب القديم بما يحمله من نصوص، كالوصفية أو التحويلية أو البنيوية أو الاجتماعية ... إلخ، وقد يكون مدار البحث في عصر معين أو عند مدرسة معينة، في حين يهتم جهدنا باستظهار قراءات لسانية متعددة في نص تراثي واحد، فالافتراق حاصل في التنظير والإجراء من غير إنكار الانتفاع.

وأقمنا على قراءة نص من كتاب سيبويه في ضوء وجهات لسانية عدة تتمثل بـ: القصديّة، ولسانيات الحدث الفعلي، ولسانيات في المنوال النحوي، وتحليل أنساق الخطاب، بآلية شرح المادة الموجودة في نص سيبويه وفهمها، والكشف عن بعض القضايا النظرية والمنهجية العامة التي تثيرها قراءة ذلك النص، وتحري الإشكالات التي تندرج ضمن جملة

الصوتي (الفونولوجيا).

- صيغاً عند دراسة الصرف.

- أبواباً عند دراسة النحو ..أو غير ذلك»⁽⁵⁾.

آخذين بالحسبان أن دراسة المدونة الفصيحة يجب أن ينأى عن التفسير الانطباعي أو المضطرب، أو المشفوع بمصطلحات تعبيرية ملبسة ؛ ذلك أن المنهج اللساني «ينصهر فيه التحليل والتأليف فيغدو تفاعلاً قاراً بين تفكيك الظاهرة إلى مركباتها والبحث عما يجمع الأجزاء من روابط مختلفة ، فهو منهج يعتمد الاستقرار والاستنتاج معاً، بحيث يتعاقد التجريد والتصنيف ؛ فيكون مسار البحث من الكل إلى الأجزاء ، ومن الأجزاء إلى الكل حسباً تمليه الظروف النوعية»⁽⁶⁾، ومجال البحث ومبتغاه .
لتنشأ فلسفة لغوية جديدة تخاطب الذات والوعي ضمن منظومة تعبيرية تجعل من التواصل والتخاطب فضاء لغوياً لصناعة الألفاظ وإنتاج المعقولات ، فاللغة محور الفكر وحاملة للخطاب، والنص لا يتوقف عن كونه محلاً لتوليد المعاني واستنباط الدلالات ، مآل ذلك أن النصوص لا يوفيهما التأويل الواحد ، و لا تحصر معرفتها من استقرار بعينه .

نحن إذن أمام استعمال خاص للغة تحددها هوية الخطاب القائمة في قصديته الداخلية التي يقوم عليها ، وعليه يكون القارئ ملزماً بالوقوف على هذه القصديّة الداخلية حتى يستطيع أن يحدد هوية اللغة المستعملة التي تمكنه بدورها من ولوج بواطن النص وتحقيق القراءة المناسبة له ، هذه

القضايا التي أصبح تناولها أمراً ممكناً ضمن مقارنة متشعبة التخصصات بين اللغة واللهجات.

والذي يعيننا أن نرصد واقع المتن اللغوي التراثي الفصيح متمثلاً بمنهل صاف عماده كتاب سيبويه بعد أن غدا تقديم أنظار مستأنفة هاجساً ملحاً على الدارسين، وتعريف المتلقي ما اصطنعه الغريون من مناهج عدة، وما رافق ذلك من دعوات إلى «استثمار المناهج الحديثة في البحث اللساني، ومن أهمها البنيوية ، إذ أن للدراسات اللغوية العربية أن تعتمد البنيوية كعنصر تجديد سيكتب له البقاء والنجاح المستمر»⁽¹⁾، لتنتقل « اللسانيات من حقل الدراسات التاريخية إلى حقل الدراسات الاجتماعية مما جعلها تخضع إلى منهجية موضوعية صارمة وطرائق علمية صرفة»⁽²⁾.

ولا نغفل عن أن البحث اللساني قد واجه إشكاليات عدة، و «لعل أهم ما يعول عليه من رصد للإشكاليات ثنائية: اللغة الموصوفة وأزمة المنهج»⁽³⁾، فنلغي أن «استعمال المحدثين للمادة اللغوية القديمة نتج في غالب الأحيان استعمالهم لمناهج قديمة موروثية ؛ نظراً للعلاقة الوطيدة الموجودة بين الأصول التي وضعوها وموارد هذه الأصول»⁽⁴⁾.

ومن السبل المخففة لتلك الإشكاليات قراءة النص الفصيح ومحاكاته وتعيين الاستقرار المناسب لفحواه ، وتتطلب القراءة مراجعة حصيفة للنص التراثي ، سواء كان النص : »

- أصواتاً عند دراسة الأصوات، أو حروفاً ، أو مقاطع ، أو ظواهر موقعية عند دراسة التشكيل

(1) الألسنية العربية ، ريمون طحان، 1 / 12 .

(2) المصدر نفسه ، 1 / 27 .

(3) اللسانيات واللغة العربية ، الفاسي الفهري، 51 .

(4) اللسانيات ، محمد الأوراعي، 258 .

(5) اللغة بين المعيارية والوصفية ، تمام حسان، 158 - 159 .

(6) massim opiattelli palmarini and ce- - dric boeckx 2005. Language as natural object – liguistic as natural science the .linguistics revile . 22.pp. 447

بالفعل، ولا معنى للبحث في اللغة إن لم يكن مجال تدريب يمكن من الإجابة في رصد أنماط الممارسة اللغوية الفعلية»⁽⁴⁾.

إن الهدف هنا هو الكشف عن بعض القضايا النظرية والمنهجية العامة التي تثيرها لسانيات التراث، والكشف عن النتائج المترتبة عن ذلك؛ فالقراءة في هذا النمط من اللسانيات تطرح إشكالات كثيرة منها جملة من القضايا الفكرية التي تبين هوية التراث اللغوي وعلاقته بالنظريات اللسانية وتنوعها في ظلال الموائمة الحاصلة بينها في مجالات معرفية تشابه التقارب الحاصل بين الثقافات الإنسانية الأخرى، فيتبين أن «ما يتعين القيام به وتوضيحه بالبحث والتنقيب هو: كيف يتم توظيفه؟ وما علاقته بمفاهيم أخرى؟ ومن المؤكد أن انتقاء المفاهيم وعزلها عن الإطار النظري والمنهجي اللذين يتحكمان في هذه المفاهيم لا يقود إلى نتيجة منهجية مفيدة»⁽⁵⁾.

وقد ثبت أن «اللغة نظام أو نسق علامات تربطها شبكة العلاقات من التبعية أو الاستبدالية، وهو أمر عرفه العربي وقتله بحثاً وجدلاً لما يقرب من خمسة قرون على الأقل، وأنا فيما ناقشناه من نظرية اللغة العربية حتى الآن كنا نستطيع تطوير المفاهيم التراثية - لو أردنا - مستخدمين مصطلحات عربية أصيلة»⁽⁶⁾، على أننا لا يمكن أن نترك مسلك النظريات اللسانية على عواهنه؛ ذلك أن «تعدد القراءات يفقد التراث اللغوي العربي خصوصيته الحضارية، وذلك عندما تجعله قابلاً لأن يصاغ حاضراً ومستقبلاً في أي نظرية لسانية ممكنة، وأنه كلما ظهرت نظرية لسانية جديدة

العلاقة بين القارئ والنص تكشف عن وجود علاقة جدلية بين هوية الخطاب ولغته، فالهوية هي التي تحدد في البدء نوع اللغة المستعملة أقصد الدلالة المشحونة بالألفاظ وهذه اللغة هي التي يستكشف من خلالها القارئ تلك الهوية المميزة لذلك الخطاب»⁽¹⁾.

والحق ليس بنا حاجة إلى عناء إذا رمنا مضماراً تطبيقياً لنص تراثي يتميز بالدقة والشمولية والانفتاح على العالم؛ ذلك أن القدماء في معالجتهم للواقع اللغوي تجاوزوا الفكر العربي إلى أفكار الشعوب الأخرى، فما قدموه يعد جماع ما تفرق من رؤى تشكلت عبر العصور، وغدا هذا المنجز يتسع لاتجاهين: »

أ - إما أن يكون حاضراً في تحصيل المعارف اللسانية الحديثة.

ب - أو أن يُرجع إليه على سبيل تأصيل ما اكتسب من هذه المعارف»⁽²⁾.

وتطيل مدونة سيبويه التراثية فينا الامتاع في معاودة قراءة الجهد القديم، واستكمال التفكير وفق تصورات حديثة، وتأسيس منظومة لغوية مشفوعة بمحاكاة وقائع الحياة اليومية، لا سيما إذا كان الهاجس المتأني من تصفح تلكم الأسفار يوافق مقولة إن: «اللسانيون اكتفوا بما أتى به القدماء من معطيات ولم يحاولوا وصف لغة أخرى بالاعتماد على جرد مواد جديدة انطلاقاً من نصوص شفوية أو مكتوبة تمثل واقع اللغة اليوم على غرار ما فعله الغربيون غير مكثفين بالوصف المعياري»⁽³⁾؛ ثم لا يمكن أمر البحث اللساني علينا غمة بعد «الانتقال من دراسة اللغة المتصورة نظرياً إلى اللغة الممارسة

(1) اللغة والمعنى، 84.

(2) أسئلة اللسانيات، 44.

(3) اللسانيات، الأوراعي، 258.

(4) أسئلة اللسانيات، 21.

(5) اللسانيات العربية، مصطفى غلفان، 151.

(6) المرايا المقعرة، عبد العزيز حمودة، 257.

لمراجعة التأصيل التراثي ؛ وصولاً لإلغاء القيم الحضارية والفكرية كما جاءت من التراث.

ديباجة نص سيبيويه

((هذا باب يختار فيه الرفع وذلك قولك: له علم علم الفقهاء، وله رأي رأي الأصلاء. وإنما كان الرفع في هذا الوجه لأن هذه خصال تذكرها في الرجل، كالحلم والعلم والفضل، ولم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل في حال تعلم ولا تفهم، ولكنك أردت أن تذكر الرجل بفضل فيه، وأن تجعل ذلك خصلة قد استكملها، كقولك: له حسب حسب الصالحين؛ لأن هذه الأشياء وما يشبهها صارت تحلية عند الناس وعلامات. وعلى هذا الوجه رفع الصوت.

وإن شئت نصبت فقلت: له علم علم الفقهاء، كأنك مررت به في حال تعلم وتفقه، وكأنه لم يستكمل أن يقال: له عالم.

وإنما فرق بين هذا وبين الصوت لأن الصوت علاج، وأن العلم صار عندهم بمنزلة اليد والرجل. ويدلك على ذلك قولهم: له شرف، وله دين، وله فهم. ولو أرادوا أنه يدخل نفسه في الدين ولم يستكمل أن يقال: له دين، لقالوا: يتدين وليس بذلك، ويتشرف وليس له شرف، ويتفهم وليس له فهم. فلما كان هذا اللفظ للذين لم يستكملوا ما كان غير علاج، بعد النصب في قولهم: له علم علم الفقهاء. وإذا قال: له صوت صوت حمار، فإنما أخبر أنه مر به وهو يصوت صوت حمار.

وإذا قال: له علم علم الفقهاء، فهو يخبر عما قد استقر فيه قبل رؤيته وقبل سماعه منه، أو رآه يتعلم فاستدل بحسن تعلمه على ما عنده من العلم، ولم يرد أن يخبر أنه إنما بدأ في علاج العلم في حال لقيته إياه، لأن هذا ليس مما يثنى به، وإنما الثناء في هذا

فإن النحو العربي يكون قادراً على احتوائها⁽¹⁾، فالنحو العربي منظومة معرفية تشكلت في الثقافة الإسلامية، أنه نسق فكري وضع في فترة تاريخية محددة نتيجة عوامل معينة، وقام على أسس فكرية معينة باعتباره جزءاً من بنية ثقافية عامة بمختلف مكوناتها الحضارية: فكرية، واجتماعية، ودينية، وسياسية⁽²⁾.

إن الهدف - هنا - هو الكشف عن القضايا النظرية والمنهجية التي تثيرها لسانيات التراث، ورصد النتائج المترتبة عن القراءة الفاحصة وليست قراءة « لا تنظر إلى المقروء كما هو في شموليته وكنيته ولحظاته التاريخية⁽³⁾، وليست قراءة « لا تهتم بالتراث إلا في إطار ما تستهدفه من وراء عملها ممارسة نوعاً من الانتخاب والانتقاء ونزع النصوص من سياقها التاريخي، ثم إعادة زرعها في سياق جديد واسقاطها على الماضي (إلى الوراء) وعلى المستقبل (إلى الأمام) وعن التأويلات الحرفية أو الباطنية أو المبالغات المعنوية⁽⁴⁾»، وكل ذلك في سبيل تطويع النص للمبتغى الذي يقصد من ورائه الدارس تناوله سواء كان نظرية لغوية أو منهجاً لسانياً محدداً أو فكرة طارئة بها حاجة لاستدلال نصي يخرجها من ظلمات التردد إلى نور التحقق.

لذا كان علينا أن نتخذ محاذير هادفة في سبيل استكمال المعرفة اللسانية، وتتجلى في:

- التكلف في ليّ عنق النص التراثي، وجعله مرتبطاً غير منقطع بالنظرية اللسانية المراد تطبيقها.
- اشتراط أن تكون اللسانيات المعاصرة معياراً دقيقاً

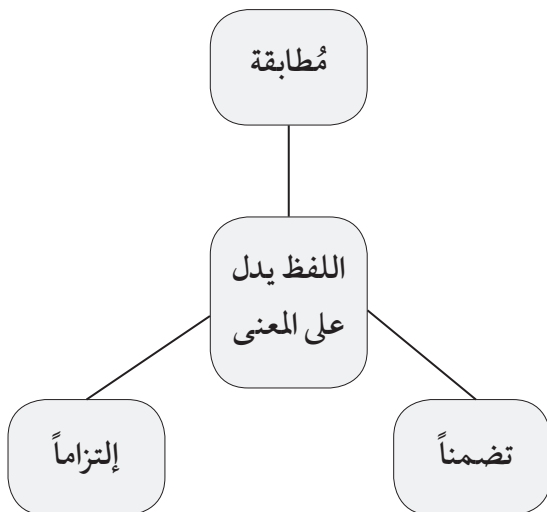
(1) قضايا إستمولوجية في اللسانيات، حفظ إسماعيلي، أمجد الملاح، منشورات الاختلاف، الجزائر، 84.

(2) المصدر نفسه، 84.

(3) اللسانيات العربية لمصطفى غلفان، 27.

(4) المصدر نفسه، 27.

المعنى»⁽⁴⁾، ومن قبلُ أفضى بعض اللغويين إلى هذا السبيل ، قال ابن فارس «فأما المعنى فهو القصد والمراد ، يقال عنيت بالكلام كذا أي: قصدت وعمدت..»⁽⁵⁾، وقد يتطابق هذا المعنى المقصود المعنى المستفاد من ظاهر القول ، وقد يتفاوت معه ، فإذا طابقه فهو «المعنى المطابقي للقول، وإن تفاوت معه فأحد الأمرين: إما أن يطابقه جزءاً من هذا المعنى الظاهر، وإما أنه يلزم هذا المعنى من غير أن يطابقه لا كلاً ولا جزءاً ، فإن كان الأول فمقصود القول هو بالذات معناه التضمني، وإن كان الثاني فهو المقصود وهو معناه الالتزامي»⁽⁶⁾.



والحق أن معايينة نظرية تكوين الكلام تكشف أن عشرات النصوص في كتاب سيبويه يكون القصد محور ما تكلم به ، والأساس الذي بنى عليه الخطاب، وليس الرفع والنصب هو الغاية الوحيدة التي قصدها سيبويه من هذا التوجيه في العرض بل غايته الأساسية كيفية بناء الكلام في ضوء مقومات ذلك البناء ومنها القصد.

الموضع أن يخبر بما استقر فيه، ولا يخبر أن أمثل شيء كان منه التعلم في حال لقائه»⁽¹⁾.

القراءات اللسانية المتحصلة من النص

القراءة الأولى : مقاصد الخطاب

من أجل معرفة قصد المتكلم لا بُد «أن تتوافر لها مؤثرات من أحوال المتكلم ، أو من أفعال سابقة عليه، أو من علاقة معروفة ، أو خطابات أخرى مماثلة ، أو ملابسات سياقية أو غيرها»⁽²⁾، فقصد المتكلم له أثره الفاعل في توجيه الأحكام النحوية كما أن القصد له أثره في توجيه الأحكام الشرعية والاجتماعية.

والقصد في النظرية التداولية يتكون من :

- قصد بمعنى الإرادة ، ونستوضحه من كلام عبد الرحمن الحاج صالح الذي ذهب إلى ضرورة «اقتران قصد المرسل في الخطاب بمفهوم الإرادة لينبني عليه الفهم والإفهام ؛ لأن الخطاب عملية بين طرفين : المرسل والمتلقي، وحقيقة القصد فيه كامنة في كونه ينبني على قصدين: أحدهما يتعلق بالتوجه إلى الغير، والثاني يتصل بإفهام هذا الغير»⁽³⁾، فالإرادة هي المعيار في تحقق المنطوق بتوجيهه إلى المتلقي وحصول الإفادة منه.

- القصد بمفهوم المعنى ، فلا يتم معرفة مقاصد الكلام إلا بعد معرفة المعنى الذي حمله؛ «لأن مدار الأمر ينصب على ماذا يعني المرسل بخطابه لا ماذا تعنيه اللغة حتى لو كان الخطاب واضحاً في لغته؛ لأن معرفة قصد المرسل هو الفيصل في بيان

(1) الكتاب: 1 / 362.

(2) نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، محمد بازي، 54.

(3) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 214.

(4) استراتيجيات الخطاب، 196.

(5) معجم مقاييس اللغة، عنى، 4 / 148.

(6) القصديّة من فلسفة اللغة إلى فلسفة العقل، 95.

ويعرض سيبويه نمطاً آخر من التعبير لمثل هذا الشخص الذي ما زال مستمراً في التعليم؛ موضحاً حالة النص فقال: ((ولو أرادوا أنه يدخل نفسه في الدين ولم يستكمل أن يقال (له دين) لقالوا: (يتدين)، وليس بذلك، و (يتشرف) وليس له شرف، و (يتفهم) وليس له فهم))⁽³⁾.

ويعرض سيبويه نمطاً آخر يشبه النمط السابق من حيث الألفاظ والعلامات، ولكن القصد يختلف في قول المتكلم (له صوت صوت حمار)، فهو هنا ليس بصدد أنه استكمل الصوت، كما يستكمل العالم علمه؛ ليقال له (له علم علم الفقهاء)؛ لأن القصد قد اختلف، فقصد من التعبير الجديد كما قال سيبويه: ((فإنما أخبر أنه مرّ به وهو يصوت صوت حمار))⁽⁴⁾ أراد أنه حين مرّ به كان في حال تصويت مزعج كتصويت حمار.

ويلخص سيبويه القصد في تعبير الأول في حالة الرفع (له علم علم الفقهاء) بذكر أمر جعله يضع (علم) الثانية في سياق جملة اسمية عبر عنها بحالة الرفع هما: الأمر الأول: الإخبار عما استقر فيه قبل رؤيته وقبل سماعه، ومعنى استقر أنه صار على يقين من كثرة ما رأى وسمع وشاع بين الناس من علمه أنه عالم حقاً.

والأمر الآخر: أن المتكلم رآه يتعلم، فاستدل بحسن تعلمه على ما تعلمه وصحة ما نضج من علم، وصواب ما نطق به من قضايا كثيرة سُئل عنها، قد أيقن أن ما اكتسبه من علم يؤهله لأن يرتقي إلى مرتبة العلماء على الرغم من استمراره في التعلم، وهذا ما دعاه إلى الثناء عليه؛ لأنه أخبر بما استقر في نفسه من استحقاق الثناء عليه.

ولو عدت إلى النص وتأملت دلالاته وما انطوى عليه من غايات لعرفت أن حصر مباحثهم في الإعراب، والعلل، والعامل وأثره، مع الابتعاد عن التبصر بتغيير أنماط التعبير بحسب قصد المتكلم وحال المخاطب لا يفضي إلى استكمال الصورة المعنوية للخطاب، على أن سيبويه قد أثر في كلامه «مثل هذه الأنماط من التعبير بحسب هذا المنهج المعنوي على النحو الآتي»⁽¹⁾.

- في قول المتكلم: (له علم علم الفقهاء)، ليس الغاية بيان أن (علم) الثانية مرفوعة وبيان العامل في رفعها، هذا أمر يلحق تكوين الكلام، ويأتي مكماً له؛ لأن للعلامة دلالة على معنى أو قصد. ولو تتبعنا كلام سيبويه لوجدناه يغور في عقل المتكلم، ورؤيته للحال التي أمامه والقصد الدقيق الذي يريد التعبير عنه، وهو أن العلم قد اكتمل ونضج في ذلك الشخص وعُرف به وشاع بين الناس اعترافهم بعلميته، فصار العلم فيه كالجزم منه كياناً؛ لذا عبر عنه في سياقه جملة اسمية بدلالة الرفع، وذلك عن حقيقة ثابتة، فصار العلم كاليد والرجل.

وهذا القصد غير قصد المتكلم الذي يمر بشخص في حال تعلم وتفقه، أي أن العلم والتفقه ما زال في أوله ولم يستكمل مقوماته؛ ليكون كما كان عند من عبر عنه في سياق الجملة الاسمية في المثال السابق؛ بل هو الآن وفي المستقبل سيكون مستمراً في تلقي العلم ولم يبلغ مرتبة العلماء؛ لذا اقتضى هذا القصد أن يعبر المتكلم عن (علم) الثانية بسياق جملة فعلية بدلالة النص فيقول: (له علم علم الفقهاء). كأنك مررت به في حال تعلم وتفقه و كأنه لم يستكمل أن يقال له عالم⁽²⁾.

(3) الكتاب: 1 / 362.

(4) المصدر نفسه: 1 / 362.

(1) ينظر: نظرية نحو الكلام للخالدي، 166-167.

(2) الكتاب: 1 / 362.

ينكشف لنا - بعد هذا - التحليل القادم:

1. إن سيبويه لم يتعامل في هذا النص على أنه منقطع الصلة عن أطراف الخطاب، وأن مفهوم القصد «يخرج النحو والإعراب من طبيعتهما الشكلية المجردة؛ ليجعلهما يبنيان على ما ينشئه المتكلم من علاقات مع الكون الخارجي في المقامات المختلفة، وهو مفهوم يقحم المتكلم في عمل الإعراب ويبوئه في مستوى الإنجاز مركزاً محورياً عند إنشاء المعاني»⁽¹⁾، ولقد نعلم أن الشاطبي قد ذكر أن سيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به⁽²⁾.

2. إن التوصيف الذي قدمه سيبويه قد اتسم بحيوية الدلالة والوقوف على ترابط أجزاء الكلام «وهذا الوصف يعني وصف العناصر اللغوية وغير اللغوية من أجل توضيح المعنى، فالنحو يقوم على المعاني والأغراض التي يريد المتكلم إبلاغها إلى السامع، ولم يغفل سيبويه مقاصد المتكلم في توجيه كثير من الأحكام»⁽³⁾.

القراءة الثانية: فلسفة الحدث اللسانية

إن أقرب ما وجدناه في التراث النحوي إلى التفريق بين الفعل والحركة على أساس كمال الأول ونقصان الثانية ما جاء في نص سيبويه يفرق فيه بين الحدث الذي بُدئ في علاجه ومعاناته

فلم يستكمل ولم يفض إلى هيئة مستقرة يمكن وصف الفاعل بها وبين الحاصل بالحدث نفسه، وهو صفة قد استكملت وبلغت غايتها وصارت مستقرة بحيث يمكن أن يوصف صاحبها بها، قال سيبويه: هذا باب ... الوجه رفع الصوت⁽⁴⁾.... وإن شئت نصبت فقلت: له علم علم الفقهاء.. بين هذا وبين الصوت.

فالصوت علاج، والعلم صار عندهم بمنزلة اليد والرجل، ويدلك على ذلك قولهم: له شرف وله فهم... كان منه التعلم في حالة لقائه⁽⁵⁾.

وإذا كان اختيار أرسطو اللغوي في التفريق بين الفعل والحركة يقوم على المقابلة بين صيغ الفعل الزمانية⁽⁶⁾، فإن سيبويه قد استند هو أيضاً على اختيار لغوي يقوم على التفريق بين دلالة صيغته (تفعل) المفيدة لمعاناة الحدث وتكلفه والاجتهاد فيه؛ ليحصل (تدّين، و تشرف، وتفهم، وتعلم، وتفقه)، ودلالة الصيغة المجردة المتصلة بجذر تلك الصيغة الأولى المفيدة للحدث وفاعله (الصفة المشبهة، أو اسم الفاعل، نحو: عالم، دّين) أو ما كان في معنى الصيغة المفيدة للحدث وفاعله (له شرف، وله فهم)، فالتفهم والتعلم والتفقه وما إليها من أحداث لا يؤدي الشروع في إنجازها أو إيقاعها على نحو جزئي إلى الوصف بها؛ لأنها أحداث ناقصة بالنظر إلى تمام الصفة الناشئة أقرب ما يكون إلى البيت الناجم عن حدث البناء، وكما لا يصح أن يقال لمن أنجز بعض البناء إنه قد بنى البيت ولا لمن رسم بعض الدائرة أنه قد رسم الدائرة، فكذا لا يصح أن يقال لمن عالج بعض العلم أو

(1) الانشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، خالد ميلاد، 237.

(2) ينظر: الموافقات في أصول الشريعة، 4/ 116.

(3) القصيدة الإنجازية في مضمون الخطاب النحوي في كتاب سيبويه، 228.

(4) الكتاب، 1/ 361.

(5) الكتاب، 1/ 362.

(6) See: Cosselin .F.Francois 1989.259

حدث الفعل الشرفي عماده التصعيد ، فهو مصطلح معاصر تمتاز به العربية، ويكون فيه الارتفاع بالمعنى في الصورة المادية الملموسة إلى الصورة الذهنية، فإن معاني الجذور الأولى مادية محسوسة وضعية ولكن عن طريق التصعيد ترتفع لفظة الفعل المشتقة من الفعال، وهو حبل يربط به البعير كي لا يتفلت إلى صورة ذهنية غير ملموسة، أي أن الذات يصبح معنى في جميع اللغات السامية⁽⁵⁾.

وكما أن حركة بناء البيت وصنع السيارة تنتهي نظرياً باكتمال البيت ووجود السيارة على هيئة تامة، فإن معالجة العلم ومزاولة الفقه وممارسة الفهم تنتهي أيضاً بحصول الصفات الثابتة المستقرة المتعلقة بها ويلوغها حد الكمال، وقد استعمل سيبويه للتعبير عن ذلك بفعل: استكمل، واستقر، ولا بد من التنبيه على أن الكمال أمر اعتيادي لا يمكن تحديده على وجه الدقة، فالعلم والشرف والفهم وما إليها من أمور تكتمل إذا حكم بكمالها من حُول تقويمها والشهادة بها لغيره، كما أن حدَّ النحافة يجري إلى غاية هي: الصحة والعافية، وليس الصحة والعافية أمراً مضبوطاً بحدود طبيعية دقيقة، كما أن اكتمال بناء البيت يكون كما خطه صاحبه، ولا شيء يمنعه بعد الحكم باكتماله من زيادة تحسينه⁽⁶⁾.

القراءة الثالثة: المنحى النفسي الاجتماعي (Psycho-social)

لا غرو أن الإطار الاجتماعي المוגل في أعرف الناس وتقاليدهم له أثره فيما يصدر عن المتكلم من تراكيب، (ولفندريس) قول وطيد العوائد بما

(5) لمزيد تفصيل ينظر: المعجم المفصل في فقه اللغة لمشتاق

عباس، 122.

(6) قضايا الحدث، 41.

زاوّل بعض الفقه إنه عالم أو فقيه⁽¹⁾.

والحق أن الوعي المعنوي للألفاظ جعله يسوق هذه الصيغ على حالتها المقروءة أمامنا، فالشرف لا يتجزأ إلا أن يستكمل فيوصف به صاحبه، وإن جرى الوصف على التجزئة كما يحدث في النشاط الكلامي اليومي فما ذلك إلا إشعار بالتهكم لمن قصده الوصف. في المثال الذي ذكره سيبويه (يتشرف).

ويقودنا التنظير المعجمي إلى التبصر بالحدث المترتب على التشرف، قال ابن منظور: الشَّرَفُ: الْحَسَبُ بِالْأَبَاءِ، شَرَفَ يَشْرَفُ شَرَفًا وَشُرْفَةً وَشَرَفَةً، فهو شريفٌ، والجمع أَشْرَافٌ. غيره: والشَّرَفُ والمَجْدُ لا يكونان إلا بالأبَاء. ويقال: رجل شريفٌ ورجل ماجدٌ له آبَاءٌ متقدّمون في الشَّرَفِ⁽²⁾.

وفي قريح أبي العتاهية⁽³⁾:

يا من تشرفت بالدنيا وطينتها

ليس التَّشَرُّفُ رفيع الطين بالطين

ونمضي بنا في كشف هذا التوصيف فنصل إلى ما ذهب إليه أبو مسحل الأعرابي في القول: إن فلاناً ذو شرفة / وما أعظم شرفته، وما أعظم شرفته، يعني شرفه، فجعل شرفه بمعنى الشرف قليلة الاستعمال، ولم تشتهر اشتهاً لفظة الشرف إذ لم تكثر على السنة الجمهور؛ فأهملت لذلك وكانت من النوادر⁽⁴⁾، وفي نظرة إلى الحقل الدلالي فإن لفظة الشرف والإباء والتضحية والعز في معاني جذورها تدل على النوع الملموس المحسوس، ومن ثمّ يمكن أن نلمح إضاءة في ضروب فقه اللغة تقودنا إلى تفسير دقة اختيار

(1) ينظر: قضايا الحدث للعمري، 40، ومن الاستنارة بمصنفات التراث يمكن مراجعة الخصائص، 382 / 1.

(2) لسان العرب مادة شرف.

(3) ديوانه، 33.

(4) ينظر: النوادر، 14.

تلمس العلاقة القائمة بينهما يسير في اتجاهين: أحدهما: تأثر ما أورده النحويون من أمثلة بأعراف المجتمع كونه يشكل البيئة الطبيعية للكلام المبني على ثلاث جهات إشارية: المتكلم (المثير)، والمشار إليه، والمتكلم (المشار له)⁽⁴⁾، والآخر قد تتأصل الأعراف بالتوجيهات النحوية، فيتضوع منها ما بُقِرَ من مستور نواميس المجتمع، ومأمول مجالاته المعرفية.

قال في تفسير قوله: « (له علم علم الفقهاء) ، (وله رأي رأي الأصلاء) : وإنما كان الرفع وكأنه لم يستكمل أن يقال له عالم ..⁽⁵⁾

وتلقانا في الكتاب أمثلة كثيرة من الجمع بين التفسير اللغوي وملاحظة السياق ، وذلك حين نراه يقف إلى تراكيب مخصوصة فيردها إلى أنماط لغوية مقررّة ، ويقدر ما يكون عرض لها من الوجهة اللغوية الخالصة من حذف أو غيره، وفق نظرية العامل ، ولكنه لا يقف عند ذلك بل يتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام ... وقد هدانا هذا الاتساع إلى استكناه البنية الجوانية للتركيب النحوي ورسم خطوط هادية في تعلم العربية تعليماً يضع كل تركيب موضعه ويعرف لكل مقال مقامه⁽⁶⁾.

نرمي إليه، ففي أحضان المجتمع تكونت اللغة، ووجدت يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم.

وتنشأ من احتكاك بعض الأشخاص الذين يملكون أعضاء الحواس، ويستعملون في علاقاتهم الوسائل التي وضعتها الطبيعة تحت تصرفهم، فاللغة بمعناها الأوفى تنتج من الاحتكاك الاجتماعي، ولهذا صارت من أقوى العرى التي تربط الجماعات، وقد دانت بنشوتها إلى وجود احتشاد اجتماعي⁽¹⁾.

ولا نجد في أنفسنا حرجاً مما قضى به (جورج ميد) بأن اللغة ركيعة أساسية لعملية التفاعل الاجتماعي، فهي تضع الوسائل الملائمة، والرموز المشتركة التي بوساطتها يبلغ الطفل عقله البشري، فالطفل طبقاً لرأي (ميد) يتعلم التفكير، ويشعر بالطريقة التي يؤديها الآخرون⁽²⁾، وفي اختلاف لغة الأطفال عن لغة الكبار، واختلاف اللغة باختلاف: التواصل الإقليمي، أو الاجتماعي، أو العرقي، أو الجنس، كما أن هنالك طرفاً خاصاً للتكلم واختيار الكلمات تحددها متطلبات اجتماعية معينة⁽³⁾، وفي هذا التنظير يظهر الكلام متواشجاً غير متفاصل في استنطاق معطيات علم اللغة الاجتماعي ومنزلتها في الدرس اللغوي.

وكان تماماً على الذي تقدم وتفضيلاً له أن نتلمس كنه المثال النحوي وعلاقته بالمجتمع، ولعل

(4) الأعراف الاجتماعية، نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، الخرطوم، مج (4)، ع(1)، 1985 م، (14).

(5) الكتاب، 362/1.

(6) الوجهة الاجتماعية في منهج التحليل اللغوي في الخصائص عند ابن جني: سائدة عمر عبد الله العيص، تحقيق: محمود جفال الحديد، الجامعة الأردنية، عمان، ط1، 1996 م، ص 31.

(1) اللغة، فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950 م، (35).

(2) See Sociolinguistic Aspects of language learning and teaching by j-B. pride, p 5

(3) دراسات في علم اللغة دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، كمال بشر، 58.

ونلمح أن الملكة اللغوية التي ذكرها موسى لا تنفك عن نظرية الملكة اللسانية عند ابن خلدون التي تقوم على أسس ثلاثة:

أولها: أن «السمع أبو الملكات اللسانية»⁽⁴⁾

ثانيها: أن اللغة هي «عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني. فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان»⁽⁵⁾.

ثالثها: أن تربية الملكة لا يحتاج إلى النحو، الذي هو علم صناعة الإعراب.

وبذا ابن خلدون وصف ما يحدث داخل النفس نتيجة الحفظ والتكرار فقال: «إن الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقوم أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم يتكرر فتكون حالاً. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة. ثم يزداد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة»⁽⁶⁾.

فالصلة الحميمة الوثيقة بين بحوث الباحثين وبين حياة الناس العملية حتى في مثل هذا المجال اللغوي الذي يبدو لعين القارئ العربي اليوم وكأنه مبتور الصلة عن تلك الحياة، جرياً منه على ما ألفه في عصره، وهذا من بعد الشقة في كثير جداً من الحالات بين رجال اللغة من جهة، وضروب النشاط العلمي من ناحية أخرى⁽⁷⁾.

لقد وضعنا الدكتور نهاد موسى أمام تصور للبنى النحوية التي تجري في الذهنية البشرية بمختلف اللغات، وتفضي تلك العمليات النحوية إلى توجيهات نفسية من أهمها الملكة اللغوية وهي واحدة من البنى المعرفية التي يتحصل عليها الإنسان، على أن باقر قد وضع فرضيتين للبنى النحوية هما:

«البحث عن وجود دلائل تحيل إلى وجود مستويين للتركيب النحوي، والنظر في الحجج التي تقام على افتراض هذين المستويين في البنية النحوية»⁽¹⁾.

ويربط التنظير بالتطبيق من نص سيبويه نلفي مستخلصاً من قوله: ((وإذا قال: له علم علم الفقهاء))⁽²⁾، فهو يخبر عما قد استقر فيه قبل رؤيته وقبل سماعه منه، أو رآه يتعلم فاستدل بحسن تعلمه على ما عنده من العلم، ولم يرد أن يخبر أنه إنما بدأ في علاج العلم في حال ليقه إياه، لأن هذا ليس مما يثنى به، وإنما الثناء في هذا الموضع أن يخبر بما استقر فيه، ولا يخبر أن أمثل شيء كان منه التعلم في حال لقاءه... ينبئ عن تلكم الأنظار ويقودنا إلى تمييز البنية العميقة استدلالاً، والوقوف على الحجج النحوية تعزيزاً؛ لاستكمال ثنائية الصورة اللفظية والصورة الدلالية، ومن ثم يتجلى في مرآة القراءة للبنية الأسلوبية في النص المعتمد افتراض مستويين أحدهما ظاهر والآخر باطن، و« يكون بالنسبة للأول بمثابة الأصل الذي ينبثق منه، والأساس الذي وصف المستوى التركيبي الظاهري عليه»⁽³⁾.

(4) تدريس فنون اللغة العربية، علي أحمد مذكور، الفصل الخامس بتدريس النحو، 67.

(5) مقدمة ابن خلدون، بيروت، لبنان، دار القلم، ط 1،

1978، ص: 546.

(6) المصدر نفسه، 548.

(7) المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، 84.

(1) مفهوم البنية العميقة بين جومسكي والدرس النحوي، 9.

(2) الكتاب: 1/ 362.

(3) مفهوم البنية العميقة، 18.

الخاتمة

في ختام هذا البحث نذكر أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

1. إن سيبويه لم يتعامل مع النص على أنه منقطع الصلة عن أطراف الخطاب، وأن توصيفه للنص اتسم بحيوية الدلالة والوقوف على ترابط أجزاء الكلام وهو وصف العناصر اللغوية و غير اللغوية.

2. بين البحث أن سيبويه استند على اختيار لغوي يقوم على التفريق بين دلالة صيغة (تَفَعَّلَ) المفيدة لمعاناة الحدث وتكلفه والاجتهاد فيه، والصفة المشبهة واسم الفاعل نحو عالم ودين، فقد كان مدركاً للوعي المعنوي للألفاظ مما جعله يسوق هذه الصيغ على حالتها المقروءة.

3. لم يتوقف سيبويه في كتابه على ظاهرة التركيب و يقدر ما عرض لها وفق نظرية العامل، بل يتسع في تحليل التركيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها، وما يلابس هذا الاستعمال في حال المخاطب و حال المتكلم و موضوع الكلام، فقد جمع بين التفسير اللغوي و ملاحظة السياق.

المصادر

- أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات: حافظ إسماعيل علوي، وليد أحمد العناني، ط 1، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، 2010.
- استراتيجيات الخطاب: عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط 1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2004.
- الألسنية العربية: ريمون طحان، ط 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981.

- الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية: خالد ميلاد، ط 1، دار صادر للطباعة والنشر، 2001.
- تدريس فنون اللغة العربية: علي أحمد مذكور، الفصل الخامس بتدريس النحو، ط 1، دار المسيرة للطباعة والنشر، عمان، 2009.
- الخصائص: ابن جني، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.
- دراسات في علم اللغة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، كمال بشر.
- قضايا إبستمولوجية في اللسانيات: حافظ إسماعيل، أمجد الملاح، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- قضايا الحدث في اللسانيات وفلسفة اللغة: شكري السعدي، الدار التونسية، تونس، 2016.
- القصيدة بحث في فلسفة العقل: جون سيرل، ترجمة: أحمد الأنصاري، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 2009.
- الكتاب: سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الخانجي، مصر.
- اللغة: جوزيف فندريس، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، ط 1، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، 1950.
- اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، دار الثقافة، مصر.
- اللغة والمعنى والسياق: جون لاينز، ترجمة عباس صادق، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1987.
- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- اللسانيات العربية الحديثة: مصطفى غلفان، جامعة الحسن الثاني، المغرب، 1998.
- اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية: محمد الأوراعي، دار الأمان، الرباط، 2002.
- اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية: عبد القادر الفاسي الفهري، ط 3، دار توبقال للنشر، المغرب، 1993.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998.

- Cosselin .F.Francois 1989.259.
- Massim opiattelli palmarini and cedric boeckx 2005. Language as natural object – linguistic as natural science the linguistics revile. 447.
- Sociolinguistic Aspects of language learning and teaching by j-B. pride,

- المريا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية: عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1996.
- المعجم المفصل في فقه اللغة: مشتاق عباس معن، دار الكتب العلمية، بيروت.
- معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، دار صادر.
- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري: زكي نجيب، مكتبة عسكر.
- مقدمة ابن خلدون: بيروت، لبنان، دار القلم، ط1، 1978.
- الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، تحقيق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية بيروت، 2004.
- نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب: محمد بازي، المغرب.
- نظرية نحو الكلام رؤية عربية أصيلة: كرين ناصح الخالدي، دار الكتب العلمية، 2014.
- النوادر في اللغة: أبو زيد الأنصاري، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، ط1، دار الشروق.
- الوجهة الاجتماعية في منهج التحليل اللغوي في الخصائص عند ابن جني: سائدة عمر عبد الله العيص، تحقيق: محمود جفال الحديد، الجامعة الأردنية، عمان، ط1، 1996م، ص 31.

الدوريات

- الأعراف الاجتماعية: نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، الخرطوم، مج (4)، ع(1)، 1985م.
- القصيدة الإنجازية في مضمون الخطاب النحوي في كتاب سيويه: هيثم محمد مصطفى، مجلة كلية التربية الأساسية الموصل، ع 3، 2012.
- مفهوم البنية العميقة بين جومسكي والدرس النحوي: مرتضى باقر، مجلة اللسان العربي، الرباط، ع 34، 1990.

